الفصل الثاني

الوسطية في آداب الدنيا والدين[1]

ومن أمور الوسطيَّة:.

١- عدم الإفراط في الحب والبغض

قال أبو الحسن الماوردي (ت سنة ٤٥٠هـ) رحمه الله تعالى

وينبغي أن يتوقى الإفراط في محبته . يعني صديقه . فإن الإفراط داع إلى التقصير، ولئن تكون الحال بينهما نامية أولي من أن تكون متناهية.

وقد روى ابن سيرين عن أبي هريرة (ﷺ)، أنَّ رسول الله ﷺ قال: أحبب حبيبك هوناً ما،عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما "[2]، وروى البخاري[3] أيضاً وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال لي عمر بن الخطاب: يا أسلم لا يكن حبك كلفاً، ولا يكن بغضك تلفاً. قلت: وكيف ذلك؟ قال: إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبي بالشيء يحبه، وإذا أبغضت فلا تبغض بغضاً تحب أن يتلف صاحبك ويهلك ".

---

(١) إقتصرنا في هذا الفصل علي بعض الآداب والقضايا دون بعض حتي لا يطول البحث ويخرج عن المراد.

(٢) حديث صحيح موقوف أخرجه البخاري في " الأدب المقرد " (١٣٢١) باب رقم (٦٤٣) عن علي (ﷺ)، والترمذي (١٩٩٧) عن أبي هريرة، والبزار في " مسنده" (١/٢٦٧/٢)، وابن حبان في " المجروحين" (٣٥١/١)، وابن عدي في " الكامل" (٧١٢/٢) ظظن وأبو الشيخ في " الأمثال" " رقم /١١٤"، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠٢/١٤)، ومسدد في " مسنده" المطالب العالية (٩/٣)، والبيهقي في " الشعب" (٦١٦٨-٦١٧٠) بسند حسن.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في "المصنف" (٢٠٢٦٩/١١) عن معمر، والبخاري في " الأدب المفرد" رقم (١٣٢٢) عن مُحَمَّد بن جعفر عن زيد بن أسلم. وسنده صحيح.

قال أبو الأسود الدؤلي:. [1]

وكن معدناً للخير واصفح عن الأذى ... فإنَّك راء ما علمت وسامع

وأحبب إذا أحببت حباً مقارباً ... فإنك لا تدري متي أنت نازع

وأبغض إذا أبغضت غير مباين ... فإنك لا تدري متي أنت راجع

وقال عدي بن زيد:.

لا تأمنن من مبغض قرب داره ... ولا من محب أن يمل فيبعدا

وإنَّما يلزم من حق الإخاء بذل المجهود في النصح، والتناهي في رعاية ما بينهما من الحق فليس في ذلك إفراط وإن تناهى، ولا مجاوزة حد وإن أكثر وأوفي، فتستوي حالتاهما في المغيب والمشهد، ولا يكون مغيبهما أفضل من مشهدهما وأولى، فإن فضل المشهد على المغيب لؤم، وفضل المغيب على المشهد كرم، وإستواؤهما حفاظ.

وقال بعض الشعراء:.

علي لإخواني رقيب من الصفا ... تبيد الليالي وهو ليس يبيد

يذكرنيهم في مغيبي ومشهدي ... فسيان منهم غائب وشهيد

وإني لأستحي أخي أن أبره ... قريباً وأن أجفوه وهو بعيد

(١) أدب الدنيا والدين (ص/٢١٧-٢١٩) لأبي الحسن علي بن مُحَمَّد حبيب البصري الماوردي. ط: القاهرة. تحقيق: مُحَمَّد فتحي أبو بكر.

٢- الإقلال من الزيارة

قال الماوردي[١]

وهكذا يقصد التوسط في زيارته وغشيانه، غير مقلل ولا مكثر، فإن تقليل الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال، وقد قال النبي ﷺ لأبي هريرة ﷺ " يا أبا هريرة زر غباً تزدد حباً "[٢].

وقال لبيد الشاعر:.

توقف عن زيارة كل يوم إذا أكثرت ملك من تزور

فإذا زار المرء أهله واصدقاؤه يوماً وترك يوماً، أو أسبوعاً وترك أسبوعاً فقد زار غباً وقد خلق الإنسان ملولاً، يسأم المنظر الواحد، ويزهد لون الطعام الواحد، إذا بعد عن الشيء إشتاق إليه وإذا حرمه تلهف عليه، يفارق أهله فتشتد رغبتهم في رؤيته فإذا عادو وأطفأ وامنه شوقهم، أصبح لا يثير شوقاً ولا لهفة، ولكي يزيد حب المرء للشيء ينبغي تركه حيناً، فتحسن النفس إليه حنيناً، ولذلك

يقال:" زر غباً تزدد حباً ".

وقال الشاعر:.

عليك بإغباب الزيارة إنها إذا كثرت كانت إلي الهجر مسلكاً

وقال آخر:.

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل هجرانه فيلج في هجرانه

إن الصديق يلج في غشيانه لصديقه فيمل من غشيانه

حتي يراه بعد طول سروره بمكانه متثاقلاً بمكانه

وإذا تواني عن صيانة نفسه رجل تنقص واستخف بشانه

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص/٢١٨).

(٢) الحديث رواه البخاري في الأدب المفرد، وقد صار هذا المثل مضرب الأمثال.

٣- وإحذر كثرة العتاب

وبحسب ذلك فليكن في عتابه، فإن كثرة العتاب سبب للقطيعة، وإطراح جميعه دليل على قلَّة الإكتراث بأمر الصديق. وقد قيل:" علة المعاداة قلة المبالاة ".

بل تتوسط حالتا تركه وعتابه، فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة، فإن المسامحة والإستصلاح إذا إجتمعا لم يلبث معهما نفور، ولم يبق معهما وجد.

وقد قال بعض الحكماء:.

لا تكثيرن معاتبة إخوانك، فيهون عليهم سخطك.

وقال منصور النمري:.

أقلل عتاب من إستربت بوده ليست تنال مودة بعتاب

وقال بشار بن برد:.

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

وإن أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

فعش واحداً أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه

٤- واقتصد في المزاح

قال العلامة مُحَمَّد الغزي العامري[١] (ت سنة ٩٨٤هـ) رحمه الله تعالى:.

فالعاقل يتوخى بمزحه إحدى حالتين: إما إيناس المصاحبين، والتودد إلى المخاطبين، وهذا يكون بما أنس أنس من جميل القول، وبسط من مستحسن الفعل كما قال سعيد بن العاص[٢] لابنه: إقتصد في مزحك فإن الإفراط فيه يذهب البهاء، ويجريء السفهاء، وإن التقصير فيه يغض عنك المؤانسين ويوحش منك المصاحبين.

---

(١) المراح في المزاح (ص/١٠-١٢) للعلامة بدر الدين أبي البركات مُحَمَّد الغزي (٩٠٤-٩٨٤هـ).

(٢) أبو عثمان سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص الأموي. صحابي من الأمراء الفاتحين (٣-

وإما أن ينفي بالمزاج ماطرأ عليه من سأم، أو حدث من سأم، أو حدث به من هم وغم فقد قيل: لابد للمصدور أن ينفث.

وأنشد أبو نواس:.

أروح القلب ببعض الهزل تجاهلاً مني بغير جهل

أمزح فيه مزح أهل الفضل والمزح أحياناً جلاء العقل

وأنشد أبو الفتح البستي[1]:.

أفد طبعك المكدود بالجد راحة يجم وعلله بشيء من المزح

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

قال الأبيرد[2]:.

إذا جد عند الجد أرضاك جده وذو باطل إن شئت الهاك باطله

وقال أبو تمام[3]:.

الجد شيمته وفيه فكاهة طوراً ولا جد لمن لم يلعب

وعلى هاتين الحالتين كان مزح رسول الله ﷺ وأصحابه وتابعيه والعلماء والأئمة.

٥٣هـ) كان مشهوراً بالكرم والبر حليماً وقوراً ومن كلامه: لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا تمازح الدنيء فتهون عليه. ترجمته في: طبقات ابن سعد (٣٧٢/٥) وجمهرة الأنساب (٢٥٤)، والإصابة (ت/٥٤٤٣).

(١) أبو الفتح البستي شاعر عصره وكاتبه ومؤرخه ولد في بست ومات سنة ٤٠٠هـ. ترجمته في: وفيات الاعيان (٣٦٥/١)، والبداية والنهاية (٢٧٨/١١)، وييمة الدهر (٢٠٤/٤).

(٢) الأبيرد بن المعذر الرياض شاعر أديب (ت سنة٦٨هـ) راجع الأغاني (٩/١٢-١٥)، وسمطاللآلي (٤٩٤).

(٣) الشاعر حبيب بن أوس (١٩٠هـ -٢٣١) أنظر: وفيات الأعيان (١٢١/١).

٥- والحذر من الإسراف والبخل

قال تعالى محذراً من الإسراف في الطعام والشراب "وكلوا وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الأنعام/١٤١).

وحذر من الإسراف من النفقة فقال " وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا " (الفرقان/٦٧).

ويقول " وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا " (الإسراء/٢٦).

" إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُور " (الإسراء /٢٧).

" وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا " (الإسراء /٢٩).

وقد قال المأمون رحمه الله تعالى:" لا خير في السرف، ولا سرف في الخير ".

وقال بعض الحكماء: صديق الرجل قصده، وسرفه عدوه.

وينبغي على المرء أن يعلم أن

الشجاعة: وسط بين الجبن والتهور.

والكرم والجود: وسط بين الإسراف والبخل.

والمروءة: وسط بين الدناءة والطيش.

واللين: وسط بين الضعف والقسوة.

والحياء: وسط بين الوقاحة والضعة.

والحلم: وسط بين الجهل والفتور، والبرود.

فالقصد..القصد، وخير الأمور أوساطها.

٦- قضيَّة العزلة بين التطرف والوسطيَّة [١]

لزوم القصد في حالتي العزلة والخلطة

قال أبو سليمان الخطابي (ت سنة ٣٨٨هـ) رحمه الله تعالى. في كتابه النفيس " العزلة:

قد إنتهى منا الكلام في أمر العزلة إلى حيث شرطنا أن نبلغه، وأوردنا فيها من الأخبار ما خفنا أن يكون قد حسنا معه الجفاء من حيث أردنا الإحتراز منه، وليس إلى هذا أجرينا ولا إياه أردنا. فإن الإغراق في كل شيء مذموم، وخير الأمور أوسطها، والحسنة بين السيئتين.... قال علي بن غنام: لا طرفي القصد مذموم.

وأنشدنا أبو سليمان:.

ولا تغل في شيء من الأمر إقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

تسامح ولا تستوف حقك كله وأبق فلم يستوف قط كريم

قال أبو سليمان: والطريقة المثلى في هذا الباب أن لا نمتنع من حق يلزمك للناس وإن لم يطالبوك به، وأن لا تنهمك لهم في باطل لا يجب عليك وإن دعوك إليه فإن من إشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعينه، ومن دخل في الباطل جمد عن الحق.

فكن مع الناس في الخير، وكن بمعزل عنهم في الشر، وتوخ أن تكون فيهم شاهداً كغائب، وعالماً كجاهل. روي أبو سليمان بسنده عن ابن المبارك عن وهيب بن الورد

قال: قلت لوهب بن منبه: إني أريد أن أعتزل الناس!. فقال لي: لابد لك من الناس وللناس منك لك إليهم حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصم سميعاً، أعمى بصيراً، سكوتاً نطوقاً.

---

(١) العزلة (ص/١٢٥-١٢٧). بتصرف لأبي سليمان الخطابي.رحمه الله تعالى.

وقال أكثم بن صيفي: الإنقباض عن الناس مكسبة للعداوة. ومرافقتهم مكسبة لقرين السوء. فكن للناس بين المنقبض والمقارب فإن خير الأمور أوساطها. وعن وهب بن منبه يقول: إني وجدت في حكمة آل داود حق على العالم أن لا يشغل عن أربع ساعات.

ساعة ناجي فيها ربه،

وساعة يحاسب فيها نفسه،

وساعة يقضي فيها إلى إخوانه الذي يصدقونه عيوبه وينصحونه في نفسه،

وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذاتها مما يحل ويجمل فإن هذه الساعة عون لهذه الساعات.ا.هـ.